

« كلمات » من المغرب الأقصى

كان الأمير شكيب أرسلان ، رحمه الله ، يقول : المغرب والشرق في العروبة صنوان ، وقد جعل هذه القولة عنواناً لبعض مقالاته التي كتبها للدفاع عن عروبة المغرب وأصالة بنيه في التمسك بلغة الضاد تمسكاً جعل منها اللغة القومية الوحيدة التي احتضنت تراثهم الأدبي والعلمي والفني منذ الامتداد العربي الأول إلى الآن ...

وكانت العوامل الإقليمية في الوطن العربي الفسيح الأرجاء تحمي وتميت من الألفاظ والتراكيب ما لا يعد له ، فتحيا كلمة عربية في القيروان أو في فاس أو قلمسان أو قرطبة أو غرناطة ، بينما تموت في دمشق أو بغداد أو القاهرة ، والمكس واقع أيضاً .

وجاءت راجفة الامتداد التركي وقبعتها رادفة الاستعمار الأوربي فكانت كل منها للعربية بالمكيال المعروف ، وزاحت كلتاها اللغة القومية في الماديات والمعنويات ، لكن لغة الضاد أقوى وأعمق من أن تكون فريسة راجفة من الرواجف ، أو ضحية رادفة من الروادف ، وكان لسان حالها يقول :
كناطح صخرة يوماً ليؤها فلم يغيرها وأوهى قرنته الوعل

ولعله قد حان الوقت ليصفي العرب حسابهم مع الطفيليات اللغوية التي نشأت هنا وهناك ، ولينظروا بوعي وتبصر في قائمة الأموات والأحياء هنا وهناك ، وليتمهدوا الضمين ، ويقوموا المعوج ويقتبسوا ويعربوا باختيارهم ما هم في حاجة إليه من مصطلحات الحضارة التي نميش فيها ، والثقافة التي نفكر بها .

ويجب أن تكون عملية التصفية والتعمد نتيجة لعملية تسبقها وهي عملية الإحصاء والجمع والاطلاع والدراسة لكل الألفاظ والتعابير المستعملة حالياً في الوطن العربي بشرقه ومغربه .

ففي اللهجة التي نسميها دارجة أو عامية ألفاظ ومصطلحات حية ماتت في المعاجم والمراجع وعند امعان النظر فيها نجدها عربية المبنى والمعنى ولكنها ليست قاموسية .

وفي الأمثال التي نسميها دارجة أو عامية الشيء الكثير من هذا القبيل . وأنا شخصياً قد وجدت مادة خصبة عندما كنت أجمع الأمثال المغربية . وليس في هذه العملية إحياء للهجات العامية على حساب اللغة العربية ، وليس فيها خطر على لغتنا القومية الفصحى التي هي لغة الضاد ، ولكن فيها شيء آخر هو إحياء ما أماتته المعاجم من الألفاظ الفصحى .

وقد ارتأيت أن أبدأ بتقديم كلمات من المغرب الأقصى لها مدلول خاص توارثه الخلف عن السلف واستعمله المغاربة في آثارهم الأدبية والعلمية والفنية منذ قرون ، وما زال هذا المدلول معروفاً إلى الآن بينهم .

وفي الوقت نفسه أربط الصلة بين المدلول الاصطلاحي والمدلول اللغوي وأعني به القاموسي إذ دائرة اللغة أوسع من دائرة القواميس .

وأمل أن تجد هذه الفكرة صداها عند المنين بالحفاظ على اللفظ العربي في حاضره ومستقبله لتقدم للأجيال المقبلة لغة محددة الألفاظ والمعاني ، ومماجم جامعة لكل التراث الذي اشتركت في تكوينه عبقريات من مشرق المروية ومغربها .

القيسارية

في التنظيم العمراني للندن المغربية القديمة منها والحديثة نجد السوق المركزية لأنواع الثياب وأصناف البزّ يطلق عليها اسم القيسارية . وتحمل هذه السوق مكانة مرموقة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية لسكان المدن المغربية لاسيما في العصور القديمة حيث كانت أثمان البزّ بمنزلة «البورصة» للمنتوجات المغربية في الميدان الفلاحي والصناعي ، كما أن تجار هذه السوق كانوا يمثلون المنصر النشط في الحياة المغربية العامة .

لهذا نجد المؤرخين لمدينة فاس لا يذنبون الكلام على هذه السوق وتاريخ تأسيسها وما يتعلق بها من قضايا ومشاكل شغلت الفكر العام ودفعت العلماء الى التأليف والفتوى فيمن يحوز اعتماره بهذه السوق ، ومن يجتمع من ذلك لاعتبارات خاصة .

كما أن الرحالين والجغرافيين الذين تكلموا على مدينة فاس ومراكش لم يهملوا الحديث عن القيسارية وحوانيتها وتجارها وما يعرضون من أنواع مختلفة من ثياب الصوف والقطن والحرير .

غير أن هناك شيئا أساسيا من ناحيتي البحث اللغوي والعلمي يتعلق بكلمة قيسارية أهمل إهمالاً عند الباحثين المتقدمين ولا سيما رجال المعاجم والمراجع مما جعلنا نتساءل عن هذه الكلمة :

ما أصلها ؟

أهي قيسارية أم قيسارية ؟

وهل هناك علاقة بينها وبين قيصر ؟

وما شأن هذه الألف التي جاءت بعد السين أو الصاد ؟

كل هذه الأسئلة تثيرها كلمة قيسارية .

والمعاجم التي بين أيدينا لها موقف معروف من هذه الكلمة ، فتارة تهملها إجمالاً فلا تذكر لها اسماً ولا مُسَمًى وتارة تشرح المسمى وتهمل الاسم وأصله ، وتارة تشير الى أنها محرفة عن القيسارية .

ونحن في هذا التحقيق اللغوي حول هذه الكلمة يجب أن نجعل أمامنا هذه النتائج التي وصلنا إليها بعد الاستقراء والتنبع للكلمة عند المؤرخين والرحالين واللغويين والمؤرخين ، وذلك قبل أن نذكر الدليل .

لا علاقة لغوية بين كلمة قيسارية وكلمة قيصر .

لا علاقة لغوية بين المدينتين : قيسارية الشامية وقيسارية الرومية اللتين ذكرهما ياقوت الحموي في معجم البلدان وبين كلمة قيسارية التي استعملها الأندلسيون والمغاربة اسماً للسوق المعروفة عندنا وعندهم .

ان المؤرخين والرحالين الذين كتبوا عن القيسارية حافظوا على رسمها بالسين ولم يشذوا عن ذلك ، فيما نعلم ، إلا صاحب الاستبصار وهو من رجال العصر الموحدى ، فقد رأيناها عنده ص (١٤٠) مكتوبة بالصاد ، مع أنه كتبها مرة أخرى في نفس الكتاب بالسين . ولعل ذلك تصحيف . هذه هي النتائج التي هدانا إليها البحث عن أصل الكلمة ؛ وبطبيعة الحال لا بد للباحث أن يشرح دليلاً شرحاً يعطي للنتائج قيمتها اللائقة بها . وكلمة قيسارية كلمة عربية المبنى والمعنى دخلها تغيير بسيط وهو زيادة الألف فقط . وذلك أننا نجد في اللغة القيسارية بمعنى الكبير (١) . فالرجل القيساري والسوق القيسارية يعني الرجل الكبير والسوق الكبيرة أو العظيمة . ولعل الأصل في هذا الاستعمال اللغوي الفصح أنهم كانوا يقولون :

م (٥)

(١) القاموس المحيط مادة قسر .

السوق القيسرية أول الأمر ، ثم حذفوا الموصوف واقتصروا على الصفة كما هو الشأن في كثير من الأعلام الاصطلاحية حيث تلعب الصفة دورها الأساسي في غيبة الموصوف .

وإذن فلا مجال هنا للصاد ولا لقيصر . فالكلمة عربية في أصلها واستعمالها ولو كره أصحاب المعاجم والمراجع الذين أهملوها إهمالاً أو ذكروا المسمى دون البحث في الاسم وأصله اللغوي الصحيح .
على ان هناك ملاحظة لا بد من الإشارة إليها وهي هذه الألف التي جاءت بعد السين ما شأنها ؟

والحقيقة التي يصل إليها الباحث بالتتابع لرسم الكلمة عند المتقدمين والمتأخرين ، ولا سيما في رسوم الأملاك والعقارات والأحباس ، هي أن الألف زيدت على السنة العوام ثم انتقلت إلى الأقلام على مر العصور والأجيال . والغريب المستغرب أنني وقفت على كتابتها بدون ألف بخط بعض المحققين من علماء وموثقين فيقولون مثلاً :

« الحانوت الرابعة عن يمين الداخل للقيصرية » بلا ألف ، وهذا دليل على أنهم كانوا يعرفون ، في الغالب ، الأصل اللغوي الصحيح للكلمة . هذا تحقيق لغوي لكلمة القيسارية ، أما دور هذه السوق في الحياة الاجتماعية والفكرية فله قصة أخرى ستعرفها فيما بعد .

المخزن

في التنظيم السيامي والإداري للمغرب الأقصى نجد كلمة « مخزن » تعني الحكومة وسلطتها التنفيذية بمصالحها ومظاهر نفوذها في الشرطة والجيش ورجال الحكم الممثلين لها في المدن والأقاليم ، بل حق في بعض العادات والتقاليد وهيبة اللباس وأسلوب الرسائل والمخاطبات ونظام الحياة العمرانية في البناء والزخرفة في الدور والقصور وغيرها .

فالمخزن يعقد المعاهدات مع الدول الأجنبية .
 والمخزن يجمع الجيوش وينظم القلاع والحصون .
 والمخزن يؤدب العصابة ويحكم بين الناس بالعدل .
 والمخزن يسهر على حماية الأمن الداخلي والخارجي للبلاد .
 والمراسلات المخزنية تكتب بأسلوب خاص بلغ النهاية في الجودة والدقة
 وامتثال المحسنات البديعية مع الاصطلاحات الخاصة التي صارت من التقاليد
 المغربية المعروفة عند رجال المخزن .
 وكلمة « مخزن » اسم مكان من (خزن يخزن) كما هو واضح أما كيف
 أصبح يدل اصطلاحياً على الحكومة فهو ما سنحاول اجماله في هذه السطور .
 في تاريخ المغرب السيامي لا نجد ظلاً لهذه الكلمة على عهد دول الأدارسة
 والمرابطين والموحدين . ولكننا نجدها في دولة بني الأحمر بقرناطة وعند
 وزيرهم لسان الدين بن الخطيب في كتابه « الإحاطة » على الأخص .
 ودولة بني الأحمر ووزيرها لسان الدين بن الخطيب عاصرا دولة بني
 مرين في فاس . ووجود الكلمة في قلم ابن الخطيب أولاً معناه أن الاصطلاح
 كان أندلسياً أولاً ثم مغربياً ثانياً .
 وابن خلدون وهو معاصر لابن الخطيب ومن كتاب دولة بني مرين لم
 يستعمل كلمة « مخزن » فيما نعلم من آثاره .
 ومن أجل ذلك نستنتج أن هذا الاصطلاح انتقل من الأندلس إلى
 المغرب في أواسط القرن الثامن الهجري على عهد بني مرين .
 ولا نشك أن الاطلاق كان من أجل أن الحكومة كانت لها (مخازن)
 للسلاح والميرة والمال . وتلك المخازن هي رصيد قوتها ودليل وجودها
 واستمرارها في نظر أصدقائها وخصومها .
 ومن أجل أن « المخزن » قوام الحكومة أطلق عليها وصارت
 لا تعرف إلا به .

وبدأت كلمة « مخزن » قتمارى لتفسح الطريق أمام كلمة « حكومة » في السنوات الأخيرة .

السَّيْبَة

كانت الأقاليم التي تشق عصا الطاعة على الحكومة الشرعية « المخزن » يقال لها أقاليم السَّيْبَة أو بلاد السيبة ، ثم صارت هذه الكلمة تعني الفوضى واضطراب الأمن والنظام .

ولا شك أن المادة لغوية قاموسية فسَّابَ الماءَ : جرى وذهب كل مذهب ، والسائبة في الجاهلية الناقة التي تُسَيَّبُ أي تُهْمَلُ وتُتْرَكُ لِتَنْذِرَ أو نخوه .

فالكلمة إذن عربية المبنى والمعنى فهي إذن اسم مرّة أي فعلة من سَابَ يسيب ، ثم حُرِفَتْ بكثرة الاستعمال فَكُسِرَتْ سِينُهَا بعد الفتح .

المَشْوَر

تطلق هذه الكلمة في المغرب ، وقد أطلقت في الأندلس من قبل ، على الرحاب الواسعة التي يتخطاها الزائر قبل أن يدخل إلى القصر الملكي « دار المخزن » .

وتكون هذه الرحاب عادةً محل وقوف الحراس والجنود واستعراض خيل « المخزن » وجنده في الأعياد والمواسم والحفلات .

وفي القواميس نجد المَشْوَرَّ بالألف المكان الذي تُعرض فيه الدواب . فهل يكون الاصطلاح المغربي جاء من هنا حيث أن رحاب « دار المخزن »

تعرض فيها الخيول؟ ثم حُرِّفَت الكلمة فحُذِفَت أَلِفُهَا وَفُتِحَت مِيمُهَا هذا احتمال أول .

وهناك احتمال آخر وهو أن كلمة « مَشَوَّر » اسم مكان من شاورَ على غير قياس إذ القياس في اسم المكان من غير الثلاثي أن يكون على صيغة المصدر الميمي « مُشَاوَر » .

وهذا الاحتمال الثاني يؤيده أن زائر القصر لا بد أن يقف منتظراً في المشور نتيجة المشاورة التي يقوم بها حارس خاص يُسَمَّى « المشاوري » الذي يكون واسطة بين الزائر والمزور ، يعني يشارر المزور هل يمكنه استقبال الزائر في ذلك الوقت ؟

المَرُوزِيَّة

المروزية طعام مغربي يحضّر باللحم والزبيب وعدة توابل يسمى مجموعها « راس الحانوت » .

وهو منسوب إلى مدينة « مرو » الفارسية ولا شك أنه ينسب إلى هذه المدينة على القياس فيقال : مَرُوي . وعلى غير قياس فيقال : مَرُوزِي ، كما يقال في النسبة إلى الري رازي .

وقد حافظ المغاربة على هذه النسبة الغريبة منذ أقدم العصور إلى الآن . وما زالوا يستعملون المروزية إلى هذا الزمن .

عبد القادر زمامة

فاس (المغرب الأقصى)

